عراقيون
من زمن التوهج
العـدد (1332) الخميس (25) 2008
ملحق شهري يصدر عن مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون



أن الكاتب الساخر يلجأ إلى الرمزية العالية الحذرة والمنمقة اللماحة، بحيث يمكن أن تفسر وتؤول بحسب السجايا والطبقات الذهنية، مثلما هي (فلسفة بيدبا) في كليلة ودمنة.

# أبو كاطع وعودة الروح للأدب العراقي الساخر

**د.علي ثويني**

نلمس في المشهد الثقافي ظواهر «عنقاوية» برزت من بين ركام ومخلفات الدمار البعثي في صلب الثقافة العراقية، يمثلها رهط ،يعيد للذكرى اسم المرحوم شمران الياسري الذي قضى بحادث مرور مريب، بعد أن نفي إلى جيكوسلوفاكيا من قبل سلطة البعث مع رفاقه الشيوعيين فقد كان يمثل مدرسة أدبية، تستلهم الهاجس الشعبي التراثي وتسقطه على واقع قلق ينذر بكوارث أتت تباعا.

كان(أبو كاطع) «هكذا كان يكنى»، يكتب في جريدة الشيوعيين (طريق الشعب)، وكنا شبابا نتلهف لقراءتها لوالدينا، لكونها قنطرة معلوماتية تجانس بين عقليتنا وإدراكنا وإنفتاحنا وعقليتهم المتواضعة. لقد استغل معرفته ببواطن العقلية العراقية الفلاحية الجنوبية واستعمل شخصية (خلف الدواح) وجملة مفردات من حياتهم المنسية أو متناساها حينما أستعيب عليهم أن يطرقوه في ثقافة المدينة المتبعددة، لإيصال رسائله المباشرة إلى مداركهم، والأنكى في تلك الظاهرة أنها أرقت و أقضت مضجع البعثيين، الذين ضاقوا به ذرعا.فشكوه لرفاقه(الحلفاء) وقيادته النائمة في عسل (الجبهة) وأضوائها ، فاضطروا الى إفتعال حجة حصوله على بعثة دراسية في جيكوسلوفاكيا،فذهب ولم يعد.

لقد حذر الياسري من مغبة الثقة بذئاب البعثيين، وكرر مقولته (الذيب ذيب حتى لو غطيته بالحليب)، فقد كانت حاضرة في ذهنه مذابح العراقيين من الشيوعيين وغيرهم بعد انقلاب 8 شباط 3691، وأدرك بحكمة ولبابة، بان لظاها لايمكن أن يكون عابرا بل متأصل وقابل التكرار. وأمست نبوءته بمحلها، فقد اغتصب البعثيون البلاد والعباد ونهبوا مستقبلها، وأستحوذوا على الرقاب و اغتصبوا حرائر العراق في أقبية الأمن العامة، لاسيما الحرائر الشيوعيات، ولم يصغ لصوت إستغاثاتهن،بعدما طغى عليه صوت أغنية (شيلي تمر بالليل نجمه بسمانه) شعر النعماني ولحن جعفر حسن، بعدما أعلن رفاقهن المتقدون حرقة لمناصرة السوفيت على الملأ، بأن شيلي ونيكاراغوا اهم من اغتصبوهن أو نياح الثكالى أو بكاء الوطن ونحيبه، وحاكوا بفعلهم هذا دجل البعثيين، حينما أمست فلسطين والصومال وموريتانيا لديهم أهم من العراق والعراقيين.

لم يكن الأدب الهزلي الغامز جديدا في طرقه ،فقد سبقته محاولات منذ نشوء أول نشاط نشري عراقي منذ نهاية العشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي مثل جريدة حبزبوز وغيرها. وأطلعنا عليها في طفولتنا في الستينيات من خلال مجلتي (الفكاهة) و(المتفرج)، حتى جاء البعث فمنع التوجهات والمبادرات الشعبية، وأحل محلها برامج مقولبة وخطاباً (شمولياً) يراد منه أهداف محددة. وكان (أبو كاطع) استثناء أملته تنازلات البعثيين في حقبة بناء سلطتهم. ونجد اليوم بقايا من تلك المدرسة الساخرة ماكثة في كتابات خالد القشطيني، التي تهاجنت في غربتها الطويلة مع الأدب الإنكليزي الساخر، فاثرت ملكاتها، وهذبت توجهاتها.

وهنا نرصد أن الكاتب الساخر يلجأ إلى الرمزية العالية الحذرة والمنمقة اللماحة، بحيث يمكن أن تفسر وتؤول بحسب السجايا والطبقات الذهنية، مثلما هي (فلسفة بيدبا) في كليلة ودمنة. والرمزية هنا أسلوب يلجأ إليه الفنان والأديب لإخفاء ما يخاف أن يعلن ويفصح عنه ، وهي (باطنية) إبداعية، لها الفضل في تحريك المدارك وتشغيل الذهن، وتتداعى إلى تهوية مكبوت النفس . لم يكن شمران الياسري مطلعا على حركة الفكر العالمي والعلوم الحديثة، لكنه كتب بأفق حزبي وكان هاجسه وخشيته وأيديولوجيته، لجمت الكثير من حرية فكره. بيد أن الجيل الجديد من الساخرين غير «مؤدلجين»، ثم انهم أطلعوا وقرؤا وتوسعت مداركهم وكثير منهم له اختصاصه العلمي الذي أكسبه المنطق والعمق ولاسيما وجيه عباس الذي يحلل بمعطيات الفلسفة في البينوية والتفكيكية و(شلش) ينقلنا إلى خيالات وفنطازيات تنم عن إطلاع وسعة أفق، يسقطها على واقع مجتمع المدينة الضيق (الثورة) البغدادية، القابعة على هامش التاريخ والجغرافية والمجتمع، والبعيدة عن فذلكة الباحثين والمنظرين النفسيين والإجتماعيين، حتى لتوحي و تشجع بعضها بأن تستلهم أو توظف في أعمال درامية بالمسرح والسينما أو توسع حيثياتها ومقياس رسمها لتكون مادة روائية دسمة.

وأجزم هنا بأن لو أنبرى أحد (أصحاب البرج العاجي)، وجد وأجتهد محاكيا ما قام به (حنا بطاطو) في لتحليل معطيات المجتمع العراقي، لقادته أقدامه وأستند في بحوثه إلى معطيات (شلش) الذي نقل لنا ما لا يحس ويرى في نفوس تلك الشريحة التي تشكل ( تسع) نفوس الأمة العراقية. .إن إدراك اللمحات الاجتماعية موهبة تشبه إلتقاط الراديو الموجات غير المسموعة من البشر، مثل المرحوم (علي الوردي) في لمحاته. وهنا يجدر تلمس أن ذلك الرهط من الأدباء يمت بصلة الى خلفيات فلاحية (جنوبية)، أزدرتها سلطة البعث ومن سبقها من الأعراب والأتراك، فأشاعت حالة من الإستنكاف حيالها، أنعكس على حالة اشمئزاز منها، فما يكاد ينطق بنسبه الجنوبي حتى يخطر ببالك (منبوذ الهند)، وكأن هؤلاء قدموا من المريخ فأبتلي العراق بهم، ونعلم جميعا ما روج له العروبيون بأنهم قدموا مع جواميسهم من الهند ،قفزا على سومر وأكد وبابل. وقد سعى مثقفو (الجنوب) الى أن يثبتوا الجدارة ويدحضوا ذلك المسخ، ويشقوا طريقهم ليرتقوا بكفاءة المنزلة الاجتماعية التي تبقى ديدن البشر، عابرين على قنطرة مواهبهم وخيالهم ووسع مداركهم وهامش التحصيل العلمي الذي حصلوا عليه، والاهم من ذلك تقمصهم روحين ،وحملهم ثقافتين ربما متناقضتين، لكن أثرت واحدة في الأخرى، حتى أكسب تراكم وتداخل حيثياتها ثراء فوق ثراء تداعى إلى أن شكلوا استثناءً إبداعياً، يجذب الباحثين العمق والبساطة في الطرح.وهكذا شكلوا اليوم العمود الفقري للثقافة والإبداع العراقي من دون أدنى شك.

ويمكن أن يكون صعود نجم الأنترنت عاملا مساعدا لظاهرة النقد الساخر الجديدة ، متناغما مع هامش الحرية المتاحة،التي لايجدها الكاتب على الورق المطبوع في بغداد، فحين وضعت القيود وحدد هامش النقد من القوى الظلامية (الطائفية والقومية) التي ورثت عقلية البعث، فان متنفس هؤلاء أتى من رئة أنترنيتية ،كونهم راصدين ،وملاحظين ومحللين للوضع السياسي الشائك، يوجهون له النقد اللاذع لاسيما ظاهرة طفح (الفقاعات السياسية) أفكاراً وممارسات وشخوصاً، التي تحرسها وتروج لها جماعات مسيرة ومرتزقة.

وفي الجانب المادي فأن هؤلاء المبدعون لا يسترزقون من إبداعهم ومواهبهم،لذا فهم يعانون الفاقة، فأنعكس الأمر على حال جيوبهم، بما لم يمنع ان تكون جذوة المكارم ونداءات الضمير في دواخلهم و إلتقاطهم هواجس العامة، وامسى مسعاهم متنفساً لبواطن الذات الحبلى بالهموم، ومقصدهم إسماع الصوت المدون. وهكذا تبوأوا المكانة التي يستحقونها في حركة الفكر الاجتماعي، حينما تبع الصدق في الوسائل وحسن في الغايات.

لقد مزج وجيه وشلش وقبلهم المرحوم شمس الموسوي وغيرهم الجد بالهزل، مرقش بروح الدعابة الفلاحية واخضر السجايا وعفوية وتلقائية، يؤطرها عشق الناس البسطاء والإخلاص لإنسانيتهم ،مع لماحية بقراءة الدواخل المسترسلة من الثراء الثقافي الشعبي المتراكم ،ومعلنين امتعاضا من التهميش الإجتماعي. كل ذلك واشجوه وواءموه مع هموم المدينة وحالة التوجس وروح الغرور والنفاق ونفخيات وتجمل وتبغدد حالة تعلن عن فحوى سطوة الشكل على المضمون، التي تسّير عقلية أهلها.

كل تلك الحبكة أنتجت أدبا جميلا ،يعيدنا إلى حركة فكرية تصاعدية أتت من صلب الثقافة العراقية التي توقفت على يد عفلق وطلفاح وصدام وعصابتهم، وحين أقرا لوجيه أو شلش ينتابني شعور جميل فأحس أنهم ينقلون لي الصورة الحقيقية الصادقة للروح العراقية المرحة المحبة للحياة والصابرة الباحثة عن الحقيقة، والقافزة فوق بيئة نفسية تتداول وتتعامل باللوعة والشكوى والألم والملامة. وأجد أن كتابات هذا الرهط تقتنص الفرح من الحزن وتستجلب الدعابة من الكآبة، وتبث الفرح والتفاؤل في النفوس التي أعياها الهم، وترسم الابتسامة في عالم عاهر يسكت عن المهازل ،يقيم ولا يقعد الدنيا على تفجيرات عمّان، ويطبق أخرس عندما يستباح الدم العراقي، ويغمز مؤيدا للتفخيخ البعثي- الأصولي داعيا إياه (مقاومة)، متشفيا بقتل الأبرياء من أهلنا ومتلذذا بمشاهد أشلائهم.

# إلى صديقي الراحل «أبو كاطع»

**محمود البياتي**

شلتاغ فقير شركاوي (او شرقاوي كما كان يحلو له ان يقول) نزح طفلا مع الأسرة من العمارة الى العاصمة بغداد، تزوج في غضون تأديته الخدمة العسكرية بعد ثورة تموز 8591 وأنجب ثلاث بنات ثم ترك الجيش لأصابته بشظية قنبلة انفجرت خطأ واقتلعت عينه اليسرى.

امتدت فترة البطالة بعد التسريح عامين نصحه ابن خالته جبار ان يقدم طلباً للعمل في دائرة البرق والبريد/منطقة الميدان التي يعمل فيها مترجماً عن الانكليزية، حرر أبو رزوقي- اشهر عرضحال في ذلك الزمان- عريضة تناشد المدير العام تعيينه في المكان المناسب، لم تكن لدى شلتاغ أي شهادة مدرسية، الا انه تعلم القراءة بمساعدة الحاح جبار.

تسلم امر التعيين . لكن الابتهاج تقلص عندما عرف ان عنوان الوظيفة حمال، اقسم جبار مراراً ان العمل في هذه الدائرة لعب:

- صَدّك ما راح تشتغل يا خوي حمال، بس ا سم الوظيفة هيجي.

لم يقتنع شلتاغ.. سأل جبار بغيظ:

- شلون هسه؟

- شنو شلون؟

- بلّلـه آني لو ما اشتغل ما يخالف، يتيم الأبوين وأعزب، بلاكت مو أنت صاحب عائلة متكسر وجهال بركبتك وعيال..

اجاب انه لا يمانع في ان يصبح حمالاً شرط ان لا يذكرون ذلك في الهوية.

- وشتريد يذكرون يابه؟ وزير برق وبريد؟

ضحك الاثنان، قال شلتاغ:

- رزام مثلاً مراسل او جلمة لخ غير حمال.. حمال شنو؟

تأفف جبار:

- ولك هو شنو الأحسن عنوان الوظيفة مدير وأنت تشتغل حمال لو حمال وأنت تشتغل مدير.. يعني كل شيء ما تسوي؟

- تريد الصدك؟

- الصدك الصدك.

- احسن يكتبون مدير واشتغل حمال.. اشتغل زمال هم اذا ما تريد.

امام عناد شلتاغ توسط جبار لدى مديره:

- استاذ حليم عفواً ابن خالتي شلتاغ مستعد في الواقع، يعني حمال بس هو حساس شويه لو تغير عنوان الوظيفة الى ساعي مثلا، او رزام.. يعني بكيفك.

- آسف عندي وظيفة وحده شاغرة وهي بعنوان حمال.

عاد حانقا الى شلتاغ الذي كان ينتظر بالمقهى وفي فمه تعليق جاهز:

- ها؟ يبين غراب.

- غراب ماكو غيرك متكلي جم واحد راح يعرف عنوان وظيفة حضرتك؟

- كل الناس.

- لا فد آني ورب العالمين.

طلع شلتاغ باقتراح جديد:

- زين خلهم يسجلون عتّال.

اغمض جبار العينين وازاح الوجه يميناً:

- هلنوب كام يتنكرز الاخ (والتفت الى شلتاغ متسائلاً بحدة) ولك هو شراح يتغير لو سميت الجربوع اسد؟

اعتقل جبار بعد يومين من انقلاب 41 رمضان 3691 بتهمة شيوعي امضى في «قصر النهاية» ستة اسابيع وحين افرج عنه بوساطة معارف متنفذين وجد شلتاغ يعمل في مديرية الأمن العامة بوظيفة عنوانها مخبر ويتعاطى كذلك شراء وبيع السيارات المستعملة مع حرس قومي

- صديقي متعرفيه عذبوه كدامي خطية.. عذبوه هواية عمّه.

اجهش بالبكاء ثم هرع الى غرفته واغلق بابها.

استعاد جبار العافية بالتدريج لكنه ظل كئيباً قليل التحدث يتحاشى الاختلاط.

قرر الاقرباء جمع المال وإرساله الى بيروت للراحة والاستجمام.

عند محطة انطلاق باصات (نيرن) في الصالحية ودعوه بالقبلات والدعاء والدموع، قال شلتاغ:

-شد حيلك جبار، ومن ترجع بالسلامة هديتي لك سيارة موسكوفيج (واضاف مداعباً) مال جماعتك موديل 85 ولونها أحمر!

لم يرجع راجت شائعات مختلفة بشأن الاختفاء، قال البعض القى بنفسه من الطابق الثامن تخلصاً من تأنيب الضمير الذي اعتراه نتيجة الاعتراف على جهاد، قال آخرون انه يكرع فودكا الآن ويدرس الأدب الروسي في موسكو، بينما زعم احد الجيران انه يعمل مذيعاً في «صوت الشعب العراقي» ويحض الناس على المقاومة واسقاط النظام.

لدى التنقيب في أوراق جبار التي استولى عليها شلتاغ بعد شهرين، وجدت مسودة مقالة لم يكمل ترجمتها بعد، عنوانها «كارل ستراندبرغ.. حمال هجا بشعره الرأسمالية».

- هم حمال؟!

قال شلتاغ.. وتابع القراءة: كارل اوغست ستراندبرغ شاعر اميركي ولد يوم 6 كانون الثاني 8781 لأب كادح من اسرة سويدية مهاجرة، كان عليه ان يعيل نفسه وهو فتى فاشتغل حمالاً ومغير مشاهد في المسرح وجالي صحون وحاصداً يدوياً.. قصائده تنم عن تعاطف راسخ مع البروليتاريا ضد الرأسمالية، وعن إيمان عميق بالشعب.

هز شلتاغ راسه بأسى:

- متجوز من سوالفك يا جبار شنو شعر.. شنو شعب.. والله بطران.

ثم قرأ مقطعاً من قصيدة:

بماذا يفكر الجلاد
حينما يعود ليلاً من العمل
الى البيت؟
حينما يجالس زوجته
وأطفاله ويتناول فنجان القهوة
هل ينظرون الى يديه وهي ترفع القهوة
او شرائح اللحم؟
ولو هتف الصغير مرة
تعال نلعب يا بابا لعبة الحصان.. خذ هذا حبل
هل يرد بنكتة:
رأيت اليوم ما يكفي من الحبال يا بني
ان وجهه سيضيء كالشعلة فرحاً
ويقول: نحن نعيش في عالم لطيف
لابد ان يكون الأمر سهلاً
بالنسبة اليه
احسب ان كل شيء سهل بالنسبة للجلاد

تنهد شلتاغ بعمق كمن قطع النفس طويلا تحت الماء تذكر «أبو عضه» فساوره انزعاج غير اعتيادي، قال:

- هذا انت يا سيد جبار العن مذهبك دائماً خيالي.. ما تهتم بنفسك ولا بمستقبلك ولا.. هسه شسوي؟

وطرد عن باله فكرة تسليم الأوراق للأمن العامة.

شمران الياسري مع والده راضي جاسم الياسري

مشهور با سم ( أ بو عضه ) لعضه الموقوفين في اثناء الاستجواب. لم يبد جبار أي رغبة في مقابلة شلتاغ او تلبية دعواته المتكررة لتناول السمك المسكوف في شارع (أبو نواس) كان يجنح للانفراد في المطبخ او غرفة النوم وكانت العمة الوحيدة «زهرة» تداوي كل مساء آثار حروق وتقرحات في باطن القدمين وما بين الأصابع وتحت الإبط.. سمعته ذات مرة يردد في الليل:

- العفو جهاد.. العفو عيني جهاد العفو.

فسألت مذعورة:

- فدوه هاي شبيك؟ لتخوفني منو هذا جهاد؟

## عالم «أبو كاطع»

عبد المنعم الاعسم

الذين عاشوا مع» أبو كاطع» سنوات إبداعه الروائي و حفره تلك الخواطر الغزيرة في الحياة و السياسة كانوا يعرفون عن قرب طاقته «التوليفية» الفذة في التقاط مدلولات الواقع وشحنة المفارقات اليومية وتحشيدها في النص المكتوب، وبكلمة، كانوا يعايشون كيف كان»أبو كاطع» يصطاد الفكرة، بمهارة بنائية حاذقة، من تناقضات اللغة او من تناقض الواقع ويعيد انتاجها في توليفات شعبية تلقائية بسيطة على لسان ابطاله وزوار مناماته و احلامه ومحاوريه.

وبكلمة ايضا، كنا نحن، شركاؤه في تجربة عقد من السنين (من اواخر الستينيات الى نهاية السبعينيات) وفي رحلة «طريق الشعب» بوجه خاص شهودا على «اسرار» صنعة (أبو كاطع) المثيرة، بل وكان بعضنا مشاركين في لعبته التي شغل بها القراء والسلطة الفاشية على حد سواء.. لعبة «الحسجة» التي بلغت ما بلغته المناشير السرية من قوة التحريض و التجهيز و التبصير.

ولا اكشف سرا بالقول ان» ابو كاطع» كان يستل البعض من فواصل خواطره من حواراتنا ومناقشاتنا و محاكينا العابرة، ثم يطورها ويثريها، حتى نجدها بعد ايام على لسان «خلف الدواح» او في سطور» غنم الشيوخ»، وعلى ذكر «غنم الشيوخ « هذه، اتذكر في مطلع السبعينيات، وقبل صدور «طريق الشعب» حين كنت محررا للصفحة الاخيرة في صحيفة «التآخي» اهداني الجزء الثاني من روايته التي صدرت تو ا بعنوان «غنم الشيوخ» فنشرت خبرا عنها لكن، خطأ، بعنوان «شيوخ الغنم» وكان ذلك موضع فرح «ابو كاطع» إذ قال لي ان هذا العنوان المقلوب ألهمه فكرة مثيرة.

لقد كان «أبو كاطع» جهازا من الحساسية و الامعان و التخيل، ولم تكن لتفوته جملة او مفارقة او حكاية نتداولها من دون ان يتوقف عندها ويعني بتفكيك اوصالها وخلفياتها.

واحسب ان عبقرية «أبو كاطع» تعبر عن نفسها في هذه المهارة: تحويل مفارقات الحياة اليومية الى نص متفجر باللغة والمعاني.. نص لا يتقادم، ولا يموت.

## من وخزات «أبو كَاطع»

ناصر حسين

أواسط سبعينيات القرن الماضي أصدرت الحكومة قانوناً أسمته قانون «رعاية ذوي الكفاءات» وفي ضوئه وجهت الدعوة لأصحاب الكفاءات من أجل العودة إلى وطنهم وخدمة العلم و البلد. إلا إن تلك الدعوات لم تلق أذاناً مصغية إلا من عدد قليل جداً من العقول المهاجرة، عادوا إلى وطنهم ففوجئوا بان اللوحة التي رسمت لهم عن بلدهم كانت مشوهة وبعيدة عما يحدث على أرض الواقع، فحزم البعض منهم حقائبه وعادوا إلى ديار الغربة مرة أخرى.

كان ذلك موضع نقاش ندوات عقدت لهذا الغرض وعلى صفحات الصحف المحلية التي وصل الأمر ببعضها-جريدة الثورة مثلاً- إن دبجت المقالات التي تطعن بوطنيتهم وإخلاصهم لشعبهم.

كان ذلك في جلسة حوارية بين (أبو كَاطع) وخلف الدواح الذي ذكر لرعايتها مقابل اجر زهيد. إلا إن حصاناً غير مؤصّل و الذي يسمى في الريف «كديش» تسبب في حرمان ذلك الشاب من عمله، واضطر لمغادرة منطقته إلى جهة مجهولة وانقطعت أخباره حتى التقى بعد سنين مع «خلف الدواح» في شارع الرشيد ببغداد وهو يرتدي أجمل الملابس و أبهاها ويقود سيارة من افخر أنواع السيارات.

سأل ذلك الشاب «خلف الدواح» عن ذلك «الكديش» وعما إذا كان قد مات وكان يود أن يعرف انه مات.

استغرب خلف الدواح من ذلك السؤال وما الهدف منه فأجاب الشاب من دون تردد: «إذا كان قد مات لأعمل له قبراً عامراً. فلولا ذلك الكديش ما صرت بهذه النعمة».